فلسفة التربيـــــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

« ليست الجماعة مجرد علاقات ، ولكنها فى كل منا ، ثم هى ترتفع فى أعظمنا إلى الدرجة القصوى »

« ماك إيفر »

« لو قد نشأ الفرد على المرونة والتجديد : لما استطاعت يد الرجعية الآثمة أن تعوق سير الحضارة ، وأن تعبث بجلال الانسانية »

(* * *)

« ليس فى الطبيعة فرد مطلق غير الله تعالى ، وما الفرد من بنى الانسان إلا جزء من والديه ومن خلية الحياة الأولى بل ومن الانسانية ماضيها وحاضرها »

« برجسن » (وغيره)

الجماعة والفرد

رأيت فيما سبق بعض تطبيقات الديموقراطية ، على الثقافة والمنهج ، والمعلم والطالب ، والمدرسة وطريقة التدريس ، وأحب اليوم أن أكمل الناقص فى ذلك ، وأوضح الغامض ، ولا سيما من ناحية الجماعة والفرد وما ينبغى أن يكون بينهما من علاقة ديموقراطية صحيحة تغرسها التربية الحديثة وتنميها

ما الجماعة وكيف نشأت ؟ اختلف العلماء فى ذلك وتباينوا ؛ ومن أشهر نظرياتهم فى ذلك دعوى « العقد الاجتماعى » التى قال بها « روسو » ومهما يكن من شىء فالجماعة الحق يسود فيها التبادل كما يقول « نوفيكو » ، كما أنها ليست مجرد علاقات أفراد بعضهم ببعض ، ولكنها روح دافع غلاب فى كل فرد كما يقول « ماك إيفر » ، وها هو « هوبهوس » يقول إن الجماعة توجد فى أفرادها ، وإن كل فرد فيها مركز اتصال ، وإن هذا الاتصال يتوقف قوة وضعفاً على الفرد نفسه ويؤثر فيه ، وإن الأفراد إنما يتحسن شأنهم ويرتقى باتصالهم بغيرهم [1]

وقد يبدو للبعض أن الرجعية والبطء فى التطور والتجديد طبيعة فى الجماعة ثابتة ، ولكن الراجح أن التربية العقيمة هى المسئولة عن ذلك كله . ولذلك نرى التربية الديموقراطية تدعو إلى سعة الصدر وحرية الفكر ومرونة العادات ، وتصرح قائلة على لسان (جون ستيوارت مل) : « ويل للزمن الذى لا يجرؤ على الشذوذ فيه إلا الأقلون [1] » !

أما الفرد فهو أنت وأنا أيها القارىء العزيز ! وكم احتُقر وازدرى فى الدهور الغابرة ، وحُرم حرية الفكر والحركة والحياة ، وكم اعتز بشخصيته ، وعلا وتكبر ، واعتبر نفسه مقياساً للأشياء جميعاً من حق وباطل ، وخير وشر ، وجمال وقبح — فى عهد السفسطائيين ؛ ولو شئت الحقيقة فى أمر هذا الفرد لعرفت أنه لا يستطيع أن يكون « مطلقاً » بحال من الأحوال ! وهل من مطلق فى الطبيعة غير الله ؟ سر إلى الصحراء إذا شئت وعش هناك وحيداً إذا استطعت ، فلن تجد « الجماعة » إلا محيطة بك عن يمينك وعن شمالك ومن خلفك ومن قدامك ، ألم ترث عنها ما قد ورثت عن آبائك وأجدادك ؟ ألا تفكر بمنطقها ؟ أو لا تهجس بلهجتها ؟ ثم ألا تستفيد من تجاربها العملية فى كل ما تتخذ من سلاح وغطاء ودثار ؟

نحن إذاً مدينون للجماعة حاضرها وماضيها بكل شىء تقريباً وإذاً فلا أقل من أن نعطيها من أنفسنا بعض هـذا الدين الذى لو عشنا دهوراً لما وفيناه ؛ ولكن الجماعة مع ذلك مدينة لبعض الأفراد هى أيضاً ؛ ألا يقول « كارليل » ما تاريخ الإنسانية إلا تاريخ عظمائها ؟ وإذا فلا أقل أيضاً من أن تحترم الجماعة الفرد وتشجعه على خدمتها ، وتسمح له بإصلاح ما فيها من عيوب والسمو بها إلى مثله العليا . وإذ كان الجمال فى الفن هو « كثرة » تسيطر عليها « وحدة » كما يرى الأستاذ « كوزن » فى كتابه الفريد : « الخير والحق والجمال » ، فإن (السير برسى نن) يرى أن تاريخ الإنسانية يتطور ويتقدم نحو « الفردية » المتزنة ، وكلما قطع فى تطوره شوطا كلما كانت الحياة أسمى وأهنأ وأرفع وأخصب

وإذا كان الأمر كذلك فماذا عسى أن تكون العلاقة الصالحة بين كل من الجماعة والفرد ؟

يقول هوبهوس « يجب أن تنمو الجماعة وحدة متناسقة فلا يتضخم فيها « فرد » ويصير مارداً على حساب الجميع »

ويقول الأستاذان « ديوى وتفت » إن مقياس كل نظام

(١) أنظر .r. A source Book فصل الجماعة والفرد

(١) أنظر كتاب الحرية للفيلسوف المذكور ترجمة الأستاذ طه السباعى

اجتماعي هو : « هل يجعل قدرة الفرد حرة في زيادة الخير العام ؟ وهل يسمح بمساواة الجميع في فرصة إظهار الكفايات ؟ » بل إن (ديوى) ليقف عند كل نظام سياسي أو غير سياسي ليرى أي دوافع يثيرها ؟ وأي أثر له على من ينفذونه ؟ أهو يحرر القوى ؟ وإلى أي حد ؟ وللجميع أو للأقلية ؟ وهل تسير القوى التي يحررها في طريق معقول ؟ وإذا كان النظام نظام تعليم نراه يسأل « هل يرهف الحواس ويدرب العقول ؟ وهل يثير حب المعرفة في النفوس ؟ وما هو نوع « حب المعرفة » هذا ؟ أهو عرضي يطفو أم جوهري يغوص ؟[1] » ، وهكذا دواليك..

بقي أن نتساءل وما « المصير » ؟ أإلى ماهو أحسن كما يقول المتفائلون ؟ الواقع أن الجماعة في تطور دائب مستمر وإن كنا لا نستطيع أن نعتبر كل تطور نجاحاً . وبعد الوقوف على آراء — هوبهوس — وديوى — وفاجيه — وشو — ويود — ومل — وبيرى[2] — في ذلك الموضوع نستطيع أن نقول: إن « النجاح في الجماعة ليس أوتوماتيكياً بل يعتمد على الإرادة والقصد ، وإن الهرم في الأمة يمكن أن يجتنب تماماً بمرونة العادات ، وإن مذهب « إمكان التحسين » خير من التفاؤل البحت أو التشاؤم البحت ، لأنه وحده يبعث على الأمل والرجاء ، ويمنع الغرور واليأس ، وإن « حرية الفكر » هي أهم عامل في التطور نحو « الأحسن » وخصوصاً إذا اقترنت بنية بريئة فاضلة ونفوس حازمة عاقلة ، وإن « انحطاط » العهود التاريخية المظلمة ليس غير حقارات أفراد ، وطوائف ، وأحزاب ، وجماعات ، أكثر مما هو حقارات أمم وشعوب . وإذاً فتقدم الإنسان بيده لا بيد الطبيعة الصماء ، وذلك طبعاً أفضل له وأشرف . وهاهو ذا تقدم العلم يقول لنا أن ليست هناك غاية موضوعة ، ولكن هناك ما يمكن أو ما يجب أن يكون

ولكن تُرى من يدفع الجماعة إلى هذا « المصير » ؟ وكيف السبيل إلى ذلك الدفع ؟ يرى « أرسطو » أن ذلك هو واجب الحكومة وسبيله التربية ، ولكن « ديوى » يخشى إشراف الحكومة لأنه يعتبرها أكثر جموداً وتلكؤاً من المجتمع ، ولذلك نراه يعتمد على «الهيئات الحرة» أكثر مما يعتمد عليها ؛ وهاهي ذي الحكومات كثيراً ما تخطىء في الخطط وتجني على الديموقراطية جناية نكراء ، ألم تحول إيطاليا المدارس إلى ثكنات عسكرية يحرم فيها النشء من أشياء في الحياة كثيرة ، ويساق سوقاً إلى نظام تمسق مرذول فرضته سياسة خاصة قوامها الوطنية التعصبية التي لا يضيرها احتراق بعض العالم ما دام في ذلك خير لها ؟

* * *

وبعد فتلك هي الجماعة ، وهذا هو الفرد كما تتصورها الديمقراطية الحديثة ، جماعة مرنة متجددة ، وفرد حر خادم مطيع ثم تقدم يدفع بهما معاً نحو « الأحسن » قوامه الحرية والنية الفاضلة ... ولما كانت التربية هي الوسيلة الوحيدة الفعالة الجديرة « بخلق » هذه الجماعة وذاك الفرد ، فإنها يجب أن تكون بحيث تستطيع خلقهما خلقاً صحيحاً يقي الإنسانية آفات الرجعية والجمود ، ويوفر عليها حقارات أولئك الذين يسودون صفحات التاريخ ! . ومعنى هذا أن تكون المدرسة مجتمعاً صغيراً تتوافر فيه جميع الأسباب التي تحرر العقول ، وتطهر النفوس ، وتغرس التعاون والإيثار ، وتمهد للمجتمع الفاضل المنشود ... ويتطلب ذلك بالطبع اتباع طريقة في التدريس خاصة ، والعناية بدراسة معينة ، أو معاملة الطلبة على أساس ديموقراطي مرسوم ؛ ولست تطمع من غير شك في أن أمر معك بكل التفاصيل . وحسبك أن تعلم أن رياضة الغلبة والتعصب والأنانية والتنافس ، لا تؤدي بنا إلى شيء من هذا كله ، وأن حشو العقول لا يحررها ولكنه يشلها ويبلدها ، وأن الاهتمام بالحروب والاطناب في سير أبطالها يبرر ما فيها من نهب وسفك وهدم وتدمير لدى الناشئ الساذج البريء ، وأن الدروس الإلقائية التي لا تطبيق فيها ولا تعاون لا تعمل أكثر من تكوين أفراد « لأنفسهم » قبل أن يكونوا لغيرهم ، وأن إعطاء كل شيء للطالب وتوفير مجهود البحث والاطلاع عليه يجعله اتكاليًا عديم الثقة بنفسه والاعتماد عليها . وأن ... وأن ... وأن ... مما قلت وما سأقول ، وما تستطيع أن تدركه أنت دون ذكره أو الإشارة إليه ! كل ذلك لا يخلق الجماعة الديموقراطية المرنة المتجددة ، ولا يتمخض إلا عن عقول العصافير ، وإلا عن نفوس يملكها الركود والخمول ، وعن طوائف العصبية والانخذال ، ونزعات الرجعية والأنانية والشهوة والجمود... وها أنت ذا ترى العالم يمجد سياسة الحروب ويدعو إليها ويجد وا أسفاه من الشعوب جنوداً مثلهم الأعلى الإسكندر وهانيبال

(١) أنظر A source Book (٢) أنظر A source Book